المبحث الخامس

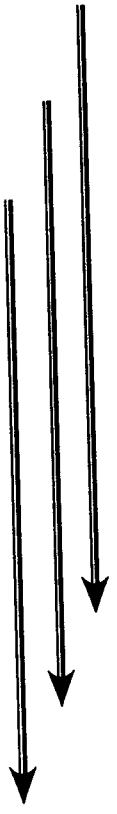

المادية (الماركسية): أحقاد وأضغاد

المادية (الماركسية): أحقاد وأصفاد[1].

يزعم دعاة المادية الماركسية أن المجتمع المادي سيصبح في يوم من الأيام مجتمعًا بلا طبقات، أي أنه يتألف من أفراد الطبقة العاملة الأحرار ذوي الوعي الاجتماعي وهي طبقة البروليتاريا، ويقوم هذا الزعم على بعض الحتميات الخيالية مثل حتمية الصراع الطبقي حيث تتصدر عبارة ماركس الشهيرة البيان الشيوعي الذي صدر عام ١٨٤٨م وهي:

«إن تاريخ المجتمعات بأسرها هو تاريخ صراع الطبقات».

وتختلف صور هذا الصراع فقد يكون اقتصاديًا يهدف إلى زيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل وقد يكون سياسيًا أو «أيدلوجيا» مثل القيام بالمظاهرات وتشكيل النقابات والاتحادات وحينما يصبح المجتمع بلا طبقات فسوف يختفي الحقد الطبقي وسوف تفتح نوافذ الحرية لجميع أفراده. ولكن النظرة الفاحصة إلى واقع المجتمعات المادية تثبت أن مثل هذا الكلام هو قمة النفاق والتضليل، أما عن الأحقاد الطبقية فقد اكتوت وما زالت تكتوي بنيرانها مثل هذه المجتمعات وذلك لسببين:

الأول: ترفع هذه المجتمعات شعار «ليس للفرد حق أو واجب في الوجود ما دامت الحقوق والواجبات مشتقة من الجماعة فقط» ومعنى ذلك أن على الفرد أن يشقي حتى الموت لحساب المجموع لأن قيمته لا تساوي شيئًا بالنسبة لقيمة المجموع. بل ما قيمة مليون من الأفراد إلى مائة مليون؟ إن من الممكن أن يطحن هذا المليون في سبيل المائة بل من الممكن أن تطحن المائة مليون إذا لزم الأمر ما دام ذلك سوف يؤدي إلى انتشار الإلحاد، ولذلك ختم كارل ماركس

(١) الصفد: الوثاق وهو ما يشد به كالحبل وغيره، والجمع أصفاد.

وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٨]، أي سخرنا لسليمان عليه السلام من مردة الشياطين آخرين منهم مقيدين في القيود والسلاسل، ذُلِّلوا له حتى قرنهم في السلاسل. ومقرنين: مربوطًا بعضهم إلى بعض.

بيانه الشيوعي بهذه العبارات: «إن الشيوعيين يأنفون من إخفاء حقيقة آرائهم وأهدافهم، إنهم يعلنون في صراحة وعلى رؤوس الأشهاد إن هدفهم النهائي لا يمكن تحقيقه إلا بقلب جميع النظم الاجتماعية بالقوة، فلترتعد الطبقات الحاكمة من الثورة الشيوعية -ليس لدى الكادحين ما يخسرونه سوى أغلالهم في الوقت الذي أمامهم الدنيا كلها ليربحوها، أيها العمال في جميع أنحاء العالم اتحدوا» (*Manifesto of the Communist party*). وبذلك يكون المجتمع الشيوعي الذي يضرب الشيوعيون في بيداء التيه والضلال حينما يحاولون تعريفه بأنه:

«المجتمع الذي يكون في أعلى درجات التنظيم يتألف من أفراد الطبقة العاملة الأحرار وذوي الوعي الاجتماعي ويسود فيه الحكم الذاتي العام ويكون العمل فيه لخير المجتمع هو المطلب الحيوي لكل فرد والضرورة التي يراعيها الفرد والمجموع وتستخدم فيه قدرة الفرد لتحقيق المصلحة العظمى للشعب بأكمله».

فهل وُجد مثل هذه المجتمع وهل اختفت الطبقية منه؟ واقع المجتمع السوفيتي سابقًا -على سبيل المثال- ينفي ذلك كله إذ أنه يتميز بما يأتي:

١- تسند الوظائف الرئيسة للصفوة من طبقة البروليتاريا ويطلق عليها *Intellgentsia* «الإنتلجنتسيا» وهي تتميز على سائر أفراد المجتمع الشيوعي بمميزات تجعل منها طبقة راقية.

٢- يتميز أفراد المجتمع الشيوعي بمميزات كثيرة تجعلهم في المرتبة التالية للطبقة السابقة.

٣- يشكل باقي أفراد الحزب الشيوعي الطبقة الثالثة وليس لها أي مميزات على الإطلاق فهل يمكن أن تنتهي الأحقاد مع هذه الطبقية أم أن الأدنى سيظل يتربص بالأعلى محاولًا اللحاق به والأعلى يتربص بدوره هو الآخر بالأدنى محاولًا دفعه عنه حتى يبقى في منزلته الدنيا.. وهكذا دواليك.

الثاني: لقد أخبرنا علماء الاجتماع أن حياة المجتمعات لا تقوم إلا بالتعاون بين الأفراد ولا بد من قانون ينظم هذا التعاون، ولا بد من سلطان لحماية هذا القانون فما هو هذا السلطان؟ لقد ظن الماركسيون أن الحياة المادية والاقتصادية هي التي تسير الإنسان وبذلك جردوه من أهم خصائصه التي يتميز بها عن الحيوان. وحقيقة الأمر أن الإنسان تحركه عقيدة وتسيره فكرة، وبفساد هذه العقيدة أو صلاحها تتأثر الحياة مادية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية، وما دام الإنسان تحكمه عقيدة وتسيره فكرة، فهل القوانين الصارمة وحدها كفيلة بضمان احترام حقوق الآخرين وأداء الواجبات على الوجه الأكمل؟ إن فريقا من الناس لا يؤدي واجبًا ولا يدفع حقًا إلا رهبة من السجن أو السوط أو العقوبة المالية. فما هو الرقيب على هذا الفريق وما هو الحارس عليه إذا استطاع بأية وسيلة أن يفلت من طائلة القانون؟ إنه الإيمان.. إنه العقيدة.

وقد يقول قائل: إن الإيمان بالفضيلة قد يدفع الإنسان إلى الإقبال عليها لذاتها وهذا خير ولكن خير منه الإيمان بذات علوية رقيبة على الضمائر والسرائر تحاسب على كل صغيرة وكبيرة وحينما يكون الإقبال على الفضيلة نابعا من الإيمان بهذه الذات العلية فهيهات أن يتقلب الإنسان مع هواه، وهيهات أن يستجيب لداعي الشهوة في نفسه. وهل يمكن أن تختفي الأحقاد من مجتمع اختفى منه الإيمان بالله وضاع معه العمل ابتغاء وجهه الأعلى، وتحكمت فيه الأنانية المفرطة الغشومة؟

وأما عن الحرية فما هي الحرية أولًا؟

إنها من الناحية النفسية «مظهر من مظاهر النفس البشرية، وإن الإنسان بسليقته الداخلية خلق حرًا، وإن الشعور الأول الذي يحس به هو أن له كامل الحق في أن يتصور ويفعل كل ما يريد».

وأما من الناحية الاجتماعية فإنه ينظر إليها على أنها: «**حرية علمية تتعلق بحياة الناس الجارية في المجتمع وتقوم على مبدأ الإخاء**».

وعلى ذلك فلابد لقيام الحرية في مجتمع من المجتمعات من تحقيق الحاجات الضرورية للإنسان وهي: الحاجة إلى الأمن، والانتماء والحب والاحترام والتقدير، والمعلومات، والفهم والجمال، وتحقيق الذات وقبل ذلك الحاجات الفسيولوجية (الوظيفية) على اعتبار أنه لا حرية لجائع أو لمن لا يجد الإشباع الكافي لدوافعه المشروعة، فضمان الطعام وحده لا يجعل من الإنسان مواطنًا حرًّا ولكن تمكينه من أن يقول «**نعم**» للحق والعدل، و«**لا**» للباطل والظلم.

فهل هذه هي صورة الحرية في المجتمع السوفيتي وذلك قبل تمزقه لا جمعه الله؟ إن التنظيم السوفيتي يجيب عن هذا السؤال. إن هذا التنظيم يتخذ التشكيل الهرمي في دولة البروليتاريا بمعنى أنه يتشكل من ثلاث هيئات هي:

١- السوفيت الأعلى:

وهو أعلى سلطة في الدولة ويتكون من مجلسين اتحاديين هما: سوفيت الاتحاد (نائب لكل ثلاثمائة ألف نسمة) وسوفيت القوميات وتقوم الانتخابات فيه على أساس الوحدات القومية الداخلة في الاتحاد والتي تتساوى من حيث التمثيل النيابي.

٢- هيئة الرئاسة:

وتتألف من ٤٢ عضوًا ينتخبهم السوفيت الأعلى بمجلسيه في جلسة مشتركة ويكون من بينهم رئيس وستة عشر نائبًا وسكرتيرا وأربعة وعشرين عضوًا.

٣- مجلس الوزراء:

ويتم اختيار أعضائه بواسطة السوفيت الأعلى وله حق عزلهم ويختص مجلس الوزراء بالشئون الإدارية والتنفيذية.

وهيئة الرئاسة ومجلس الوزراء مسئولان أمام السوفيت الأعلى والذين يُرشَّحون

للسوفيت الأعلى والناخبون. هؤلاء وهؤلاء يتم اختيارهم من أعضاء الحزب الشيوعي!! ولذلك فإن السيطرة السياسية في المجتمع الشيوعي تصبح في أيدي قلة من الأفراد وهم الذين تم انتخابهم بواسطة أقلية تمثل الأعضاء الرسميين المسجلين في الحزب الشيوعي، وفي ذلك القضاء على الديمقراطية الحقيقية لأنهم لا يرون أن تترك حلول المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لأصوات الناخبين أو للأدوات الفردية التي ليس لها اعتبار في نظرهم وإنما يجب أن تحل هذه المشاكل عن طريق السيطرة الحزبية المطلقة.

ومن هنا -بكل أسف- فإن الحرية في مثل هذه المجتمعات تصبح حكرا على فئة محدودة من أفرادها أما بقية الأفراد فليس لهم إلا الخضوع للرقابة الصارمة والتوجيه القاسي. ولذلك تحولوا إلى جيش من العاملين في خدمة الحزب، بحيث أصبح يطلق على هذا النظام: النظام الحديدي، أي نظام الخضوع المطلق، وسحق أي معارضة، تمامًا كما تفعل النظم الديكتاتورية (عسكرية كانت أم غير عسكرية) التي يحتم بقاؤها هذا النوع من القهر والإجبار، وهي بطبيعتها مؤهلة لذلك تمام التأهيل.

وهكذا نرى أن مثل هذه الأنظمة تقوم على مئات الآلاف من الشرطة السرية والعلنية وقد يكون نصف الأمة جاسوسًا على النصف الآخر، وإذا ما التحقت بالحزب فقد وقعت في الفخ إلى الأبد لأنه ليس في مقدورك أن تتركه متى شئت بل ليس في مقدورك أن تتراخى في نشاط إزاءه أو تبدي من العلامات ما يدل على ضعف إيمانك به، والشرط الأول لاحتفاظك بعضوية الحزب هو أن تحمل للقادة ولاء لا ذبذبة فيه ولا شائبة، ويكفي أن يشيع فلان عنك تلميحا يفيد انحرافك عن جادة الولاء ليلقي بك إلى التهلكة.

وإذا ما حدث وتعرضت للتحقيق معك فإن إجراءات التحقيق تحتوي على أفظع الفظائع التي عرفت لحمل المتهم على الاعتراف، ولن تخطر قبل محاكمتك بالتهم المنسوبة

إليك وإنما عليك أن تكون على أهبة الاستعداد لما سيفاجئك من مباغتات ولسوف تسأل نفسك من أين أتى الخطر؟!

ألم يحدث مرة أن أفضيت في الحديث ذات مساء منذ ثلاثة أعوام مدفوعا في حديثك بما تبعثه روح الزمالة في نفسك من طمأنينة؟ فقد يكون أحد هؤلاء الزملاء الذين ركنت إلى حسن طويتهم وشى بك منبئًا بما أفضت فيه من ملاحظات، ولكي تتأكد من ذلك استمع إلى هذه القصة المبكية التي جاءت في كتاب «آثرت الحرية» لمؤلفه «فيكتور كرافتشنكو» وهو شيوعي روسي كان يعمل مهندسا في قطاع الصناعة في الاتحاد السوفيتي وكان والده ممن اشتركوا في حركة الثورة الشيوعية وأمضى شطرا من عمره في السجن أيام القياصرة وقد بلغ كرافتشنكو مكانة مرموقة في روسيا إلا أنه سئم العبودية الاجتماعية والسياسية التي تسود بلاده وتبرم من النفوذ الهائل الذي تملكه دائرة المخابرات السرية وانتهز فرصة إيفاده إلى الولايات المتحدة الأمريكية في مهمة تجارية ولكنه قرر بعد إنجازها اللجوء إلى حماية الرأي العام الأمريكي وكتب وصفًا مسهبًا للمآسي التي تسود بلاده تحت عنوان «آثرت الحرية»:

يحكى ذلك الرجل على لسان فتاة اعتقل أبوها وكان أستاذًا كبيرًا بالجامعة: كانت الفتاة تريد زيارة والدها ذات يوم، فقالت لرئيس الشرطة: أرجوك أن تأذن لي بزيارة أبي، فأنت إنسان من البشر مهما كان الحال.

فرد قائلًا: ليس هنا مكان لعاطفة، وما أدواتنا التي نقابل بها أعداء الدولة سوى العذاب والموت، وخير لك أن تتبيني هذه الحقيقة والشر في التسويف ولسوف آذن لك برؤية أبيك على أساس واحد وهو أني أريد معونتك. اذهبي إلى السجن وسأرسل أمري بذلك وفكري في الأمر الذي عرضته عليك ودعي هذه البلاهة الحمقاء.

تقول الفتاة: وساروا بي إلى عنبر حيث كان أبي في غرفة وحده نقل إليها تمهيدًا لزيارتي، كان راقدًا على سرير من الحديد، ساكنًا سكون الموتى وقد طالت لحيته البيضاء ولم يبق من جسده إلا جلد وعظام، ورأيت على جبينه وصدغيه الغائرين أشرطة قبيحة

من آثار الجَلْدِ، كما رأيت أربطة على أصابعه وذراعيه، ودنوت من سريره فلم يكن لديه من العافية ما يعينه حتى على ابتسامة الترحيب.

ولما بدأ يحدثني بمشقة كبيرة رأيت ما راعني؛ إذ رأيت أسنانه قد خُلِعَت من فكه خلعًا، ثم قال بصوت منكسر: «لا تبكي يا ..» وناداني بالاسم الذي كان يدللني به منذ طفولتي، ثم تقول الفتاة: لقد كنت أوصيت ألا أتحدث في أمور عائلية أو أعرج بالحديث على شئون السياسة، ولكن الحارس الذي صحبني هاله ما رأى، فأدار وجهه عنا تلميحًا لنا بأنه لن ينصت إلى الحديث.

وانحنيت على أبي فهمس في أذني وقال: ها أنت تشهدين حالي، لقد جعلوا يضربونني يومًا بعد يوم، فأداتهم التعذيب، ومئات ممن سجنوا هنا في الحجرات المنفردة يجلدون بالفتائل المبتلة ويُحال بينهم وبين النوم أسابيع متوالية، أو يوضعون في غرف هي الجليد في بردها. لقد ضربوني في غير رحمة لأُسمي لهم شركائي في المؤامرة، وماذا أقول إذا لم تكن هناك مؤامرة إلا في خيالهم، لطالما تمنيت أن يكون لدي ما أعترف به. وفيم استرسالي معك في هذا الحديث؟ لقد كنت سمعت عن الشرطة السرية وأساليبها ولكن أسوأ ما كان أن يصور لي خيالي لم يكن إلى جانب الواقع شيئًا مذكورًا. ليس هؤلاء بشرا!! إنهم نفر من الشياطين.. أواه يا ابنتي» اهـ.

وبعد.. ألا يمكن أن نقرر أن نيران الأحقاد قد ازدادت سعيرا في المجتمع المادي (المتمثل في الشيوعي بصفة خاصة) وأن الأصفاد تجمع أيدي أفراده إلى أعناقهم فلا يملكون من أمرهم شيئًا، وإنما يملكهم من وضعهم في تلك الأصفاد.

نقرر ذلك ووجهتنا -علم الله- لا شرقية ولا غربية وإنما هي إسلامية.. وإسلامية فقط.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام